استباحوا ذلك من قبل هذا القانون نفسه فذلك منكر . والبرهان على حقيقة قولنا هذا هو ان الرهبان المذكورين لم يكونوا سابقاً يستبيحون اكل اللحم في جميع اديرتهم اصلاً كما يشهد بذلك صريحاً كتاب قوانينهم والحال انهم كانوا متمسكين بهذه القوانين ويفهمونها جيداً . فلم يستبيحوا اذاً اكل اللحم من قبل هذا القانون بل بسماح خصوصي حسب العادة المشتهرة في بلادهم (له بقيّة)

اثر تاريخي قديم للواقدي

نظر في كتاب فتوح الشام ونسخه المختلفة للاديب المحقق يوسف اندي لبّان سركيس

الشيخ الامام والسيّد الفاضل محمّد بن عمر الواقدي من اقدم مؤرخي الاسلام واشهرهم سمعةً كان مولدهُ في المدينة سنة ١٣٠ (٧٤٧ م) واتّصل ببني عبّاس فاستقضاه الرشيد والمأمون زمناً طويلاً على بغداد وفيها توفي في شهر ذي الحجة من السنة ٢٠٧ (٨٢٣ م) وكان المأمون يكرم جانبهُ ويبالغ في رعايته . وصنّف كتباً في التاريخ منها كتاب المغازي طبعهُ العلّامة كريمر (A. Kremer) في كلكوتا سنة ١٨٥٦ ومنها كتاب في فتوح الامصار ذكرهُ البلاذري والمسعودي وغيرهما وهو تأليف اخذتهُ يد الضياع فصار اثراً بعد عين مثل كتب اخرى عدّدها صاحب كتاب الفهرست ابن النديم (ص ٩٨ و٩٩) ولا يُعرف من خبرها شيء.

ومما لم يذكرهُ القدماء للواقدي وشاع اليوم على اسمه عدّة فتوحات تكرّر طبعها كفتوح مصر والاسكندريّة وفتوح الجزيرة وفتوح افريقية وفتوح البهنسا. تجدها كلّها منسوبة للواقدي ومشحونة حكايات غريبة واحاديث ضعيفة يصعب تصديقها . ولعلّ هذه الفتوحات كلّها انتزعها الكتبة من كتاب الواقدي فتوح الامصار او من بعض كتبهِ المفقودة وزادوا عليها زيادات متوالية حتى اصبحت في الصورة المعروفة بها اليوم

على انّ للواقدي كتاباً آخر اشهر من الكتب السابقة وارقى منها عهداً وان دخلتهُ مثلها الاقاصيص الغريبة والروايات المستهجنة . ألا وهو كتاب فتوح الشام كان ألّفهُ الواقدي واملاه على كاتبهِ محمّد بن سعد الزاهري . وكانت هذه النسخة معروفة عند

المؤرخين كما يشهد على ذلك ابو الفرج ابن النديم في الفهرست (ص ٩٩) وقد ذكرها من بعده الامام جمال الدين ابي الفرج بن الجوزي احد الكتبة الموثوق بهم في القرن الثالث عشر

امَّا اليوم فان راجعت النسخ المتعدّدة الباقية من هذا الكتاب في خزائن كتب لندن وباريس وبرلين ومصر وجدت اكثرها سقيمةً قريبة العهد من زماننا مشوّهة بالقصص الغريبة التي اشرنا اليها يختلف بعضها عن بعض اختلافًا عظيمًا حتى لا يكاد يُركن اليها. وعن هذه المخطوطات نُقلت النسخ المطبوعة في كلكوتا سنة ١٨٥٤ ونسخة مصر سنة ١٨٦١ ثم كُرّر طبعها مرارًا

وعُرف فتوح الشام للواقدي في اوربا قبل غيره من تواريخ العرب الأثبات لانَّ احد علماء الانكليز كان عَهِدَ الى الانكليزيَّة نقلوا عليه في تآليفهم عن الفتوحات الاسلاميَّة لاسيما جيبون (Gibbons) الانكليزيّ والفرنساوي لوبو (Le Beau) فلمَّا ظهرت بعد ذلك مؤلفات الائمة الفطاحل كابي جرير الطبري والبلاذري والمسعودي وغيرهم وكثر المحققون الفرنج المطلعون على مآثر العرب المنقبون عن اثبتها صحّةً واصدقها لهجةً استضعفوا روايات الواقدي واهملوا مطالعتهُ وتبين لهم بعد التحرّي انَّ كتاب فتوح الشام منسوب لهُ زورًا او بالحري انَّ ايدي المدلّسين قد ادخلت فيه امورًا غريبة لم يكتبها الواقدي. وزاد ريبهم في امر كتابه انَّ اشياء كثيرة تُنسب فيها الى الرواة كالاقاصيص العاميَّة دون ذكر اسم الواقدي غالبًا. فيكرّر الناسخ ما حرفهُ « قال الراوي »

وما هو اعظم من ذلك ان علماء التاريخ في الاسلام نسبوا الى الواقدي روايات ضعيفة وعدم انتقاد قال ابن خلكان في وفيات الاعيان في ترجمة الواقدي : « وضعفوهُ في الحديث وتكلّموا فيه » وكذلك ابو جعفر الطبري امام المؤرخين يغلطهُ في مواطن كثيرة وفي احاديث عديدة ولاسيما في تاريخ الوقائع وفتح البلدان. لكنَّنا لا نستطيع ان نبرز في ذلك حكمًا باتًّا لفقدان النسخ الصحيحة من تآليفه وبالخصوص كتاب فتوح الشام الذي اصبح بعد تلاعب النسّاخ باخباره لشبه برواية فكاهيَّة منهُ بتاريخ مدقّق

هذا ما اتّفق عليه ارباب البحث غير انَّ هناك مسألةً اخرى حريَّة بالنظر. هل يا

ترى لا يجد العلماء في كتاب الواقدي الذي نحن في صددهِ اخبارًا تستحقُّ الاعتبار وتجعل هذا الاثر رغمًا عن علّاتهِ من الموارد التي يجوز الالتجاء اليها . أجل انَّ في فتوح الشام عدَّة فوائد تجعلهُ في مصافّ المؤلفات التي توثقنا على حقائق متعدّدة من تاريخ الفتوحات الاسلاميَّة . قال جبون المؤرخ الانكليزي : « ان كتاب الواقدي اقدم مصنَّفات وصل الينا في الفتوحات الاسلاميَّة ويفوق اشباههُ بكثرة تفاصيلهِ لا بل يُعرب بنوع جلي عن احوال الزمان الذي جرت فيهِ تلك الحوادث في نشأة الاسلام وعن عادات الامم التي عليها مدار كلامهِ »

والحقّ يقال ان من تأمل كتاب فتوح الشام وجرَّدهُ عن نوافلهِ وجد فيهِ فوائد جمَّة لا تكاد تراها في غيرهِ من المؤرخين الذين اضربوا عنها حبًّا بالايجاز . هذا مع ما امتاز بهِ الكتاب من العبارة المنسجمة اللطيفة المأخذ وتفاصيل الاخبار وتنسيق الحوادث . وان قابلناهُ مع مصنَّفات بعض مؤرخي اليونان كهيرودوتس وثيوفانس وكدرانيوس تحققنا انهُ لا يبعد عنها في صفاتها الطيّبة . فلا غرو اذن ان وقعت فيهِ روايات غير صحيحة او احاديث ملفّقة فان ارباب الانتقاد كالمعدّنين الحاذقين يلقون التراب وثفاية المعدن ويستخلصون الجواهر الثمينة التي يغالون في ثمنها ويقدّرونها قدرها الصحيح . وها نحن نثبت هنا بعض الحوادث التي تفرَّد بها هذا الكتاب ومن شأنها ان تؤيد زعمنا

١ جاء في الصفحة ٩٨ من طبعة كلكوتا « انَّ ابا عبيدة ارتحل مع المسلمين من حمص حتى نزل على الرستن فرآها حصنًا منيعًا وماؤها غزير وهي مشحونة بالرجال فبعث اليهم رسولًا يأمرهم بالصلح وان يكونوا في ذمَّتهِ فأبوا الخ » . ويلي هذا خبر فتح الرستن المعروفة عند اليونان باسم اريتوزا

وان راجعت مؤرخي العرب والروم لا تجد ذكرًا لفتح هذه البلدة الصغيرة التي عاينَّا اخربتها قبل سنتين . فان موقعها على نهر العاصي بين حمص وحماة دليل واضح على أن المسلمين بعد فتح حمص لم يقصدوا حماة الّا بعد ان فتحوا حصن الرستن المنيع وقد كان لهذه البلدة قديمًا سور وبرجان وكانت آثارها باقية الى القرن السابق فوصفها العلّامة كل ويقر الالماني في سياحتهِ الى الشام وقد عاينَّا نحن ايضًا آثارها فوجدنا بينها ابوابًا على الطرز العربي وغير ذلك ممَّا يشهد على عمرانها السابق الذي يشير اليهِ الواقدي

٢ ومن ذلك اشارة الى عادات الروم في ذلك الزمان كذكره الكنائس الخشبيَّة التي كان يلتجئ اليها الروم في حروبهم فانهم كانوا ينقلونها من مكان الى مكان ليقيموا فيها الادعية قبل خوضهم ميدان الوغى وكثيرًا ما كانوا يقدمون فيها ذبيحة القربان قبل الوقائع. قال الواقدي (طبعة الهند ٣: ١٠٥ طبعة مصر ٢: ١٦٠)

« ثم خرج هرقل من كنيسته الى عسكره ليشرف على الخيام والسرادقات فرأى سرادقات البطارقة قد ضربت وتوبيات الملك قد نُصبت وبازاء كل توبيَّة كنيسة من الخشب مدهونة بالذهب والاجراس على ابوابها. قال وكان زي الروم ذلك. وهذه البيع الخشب يتناقلون فيها وفي صنعتها تكون معهم في اسفارهم وفي عساكرهم »

فمن لهُ المام بتواريخ الروم اي البيزنطيين يعلم ما اعتادوهُ من نصب هذه الكنائس في مضاربهم ليصلي فيها الجند قبل انطلاقهم الى الحرب وهذه العادة كانت مألوفة منذ عهد الامبراطورين والنس وثاودوسيوس كما بيَّنا ذلك في مقالة لنا كتبناها عن تاريخ مقري كوي من ضواحي القسطنطينيَّة وربما كان الملك يحضر الرتب الدينيَّة ويوقد الشمع بيدهِ

وقد ورد مع صفة هذه الكنائس ذكر « الدبجة » يريد بها الواقدي الذبيحة الطاهرة التي كان يقدّمها كهنة الروم ويتقرَّب فيها الجند لتناول القربان الاقدس

٣ ومن ذلك اوصاف متعدّدة تلوح منها احوال ذلك العصر وعادات اهلهِ كوصف حالة الروم الادبيَّة التي كانوا عليها ايَّام الفتح (راجع خطاب الملك هرقل في كنيسة انطاكية في طبعة كلكرتا ١: ١١١). وكوصف مصارعة البطريق وخالد بن الوليد مع ما يذكر هناك من تعريف سلاح الروم الثقيل وخفَّة العرب في ركوب الخيل الى غير ذلك من العادات الممثلة للقوم

٤ وممَّا دوَّنهُ الواقدي في فتوح الشام واثبتهُ من بعدهِ المؤرخون دخول خالد بن الوليد الى دمشق عنوة من جهة الباب الشرقي بينما كان ابو عبيدة دخلها من باب الجابية بالامان والصلح. وقد ذكر الواقدي تاريخ هذه الواقعة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٣ للهجرة وكأنَّ الطبري (٤: ٢١٥٥) قرأ في نسخة مغلوطة للواقدي وقعت في يدهِ انَّ فتح دمشق وقع في سنة ١٤ فردَّ عليهِ

٥ ومن ذلك ايضًا قصَّة جبلة بن الايهم فانَّها مفيدة لسياق التاريخ وتراها في

كتاب الاغاني كما رواها الواقدي وفي هذا التاريخ ايضاً ذكر المتنصرين من العرب في جماعة المسلمين فانَّ المؤرخين غير الواقدي لم يروه الّا رواية خفيفة

هذه بعض فوائد اقتبسناها من مطالعة نسخ الواقدي المطبوعة . ولو شئنا لاتسعنا في ذكر معلومات اخرى تبيّن قدر هذا التاريخ مع ما وقع في هذه الطبعات من الاغلاط لاسيما الطبعة المصريّة التي تشوهت بتصحيفات لا تحصى كأنَّ الذين تولوا نشرها لم يكتفوا لوجود نسخة مضبوطة او لم يدققوا النظر ليصلحوا ما وقع فيها من الاغلاط فانَّ الفاظاً عديدة قد صُحّفت واعلاماً كثيرة من الاماكن والرجال قد مُسخت الى غير ذلك ممّا يطول شرحهُ وقد كرّر طبع هذه النسخة على الحجر في بمباي سنة ١٢٩٧ في مطبعة الصفدي ولم يصلح من اغلاطها شيء . اما طبعة كلكوتا فهي اضبط واصح اذ تولّى طبعها احد علماء الانكليز وهو وليم ناسو وعلّق عليها بعض الحواشي فلم يسمح لهُ الوقت باتمامها وكان اعتماده على عدّة نُسخ مخطوطة اقدمها من السنة ٧٧٣ للهجرة لكنهُ عوّل خصوصاً على نسختين خطّيتين كاملتين تاريخ احداهما سنة ٨١٥ كانت من ملك الكولونل روايلسن والثانية كانت في يد المولوي ملّا حسن من بلد كنبور من اعمال الهند . وهذه الطبعة مع فوائدها لا تحتوي كلَّ ما تحتوي الطبعة المصريّة التي تتضمّن فضلاً عن فتوح الشام فتوح مصر والاسكندريّة والجزيرة والعراق والعجم

*

وقد اسعدنا الحظ فتوفقنا الى اكتشاف نسخة مخطوطة وجدنا لها بعض المزايا فاحببنا ان نبينها للقرّاء وليس غرضنا هنا ان ننتقد كتاب الواقدي انتقاداً علميّاً لبيان صحّة رواياته او لتعريف ما هو حقيقةً لهُ او اضافهُ اليهِ الكتبة من بعده فانَّ هذا البحث يطول بنا ولا نعدُّ نفسنا من فرسان هذا الميدان فضلاً عن انَّ المستشرق وليم ناسو قد سبقنا الى هذا البحث في مقدمة طبعة كلكوتا . وانّما نكتفي بذكر بعض الملحوظات التي تجدي نفعاً لارباب النظر وأولي البحث عن تآليف القديمة فنقول :

انَّ النسخة التي حظينا بها مخطوطة بخط جميل تاريخها سنة ١١٨٠ هـ كما يُستدلّ على ذلك من ختامها حيث جاء ما نصهُ :

« وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة نهار الخميس الثالث عشر من شهر رمضان

سنة ثمانين ومائة وألف على يد العبد الفقير اسماعيل غفر الله لهُ ولوالديه ولجميع المسلمين امين »

وليست تحتوي الأجزاء واحدًا من الكتاب وهو الجزء الثاني منهُ كما يظهر في آخر اوراقهِ وفيها يُقال :

ثمَّ الجزء الثاني تكملة تاريخ فتوح الشام لمكتبها لنفسهِ ومالكها فخر الاشراف السيد صالح ابن المرحوم السيد عبد المؤمن العربلي غفر الله لهُ ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والاحياء منهم والاموات امين »

فيلوح مما ترى ان نسختنا ليست قديمة جدًا وغير كاملة ولكنَّ ذلك لا ينقص قدرها اذ انَّ صاحبها استكتبها عن نسخة قديمة . ثمَّ انَّ في هذا القسم اشياء ليست في النسخ المطبوعة فانها تتضمَّن ما عدا فتوح الشام الذي اقتصرت عليهِ طبعة الهند والفتوحات المذكورة في الطبعة المصريَّة فتوحات اخرى لم تُذكر في كلتيهما اعني فتوحات العجم وخراسان وفتح جزيرة صقلية وقبرس وارواد فتكون الزيادة على طبعة مصر نحوًا من ثمانين صفحة . وانَّنا نعلم انَّ صاحب جريدة المحروسة نشر في كراسة صغيرة فتوح بلاد العجم وخراسان المنسوب للواقدي الَّا انَّ نسختنا تتضمَّن عددًا وافرًا من الحوادث التي لا تُروى في الكرَّاسة المذكورة كفتح جلولاء وحلوان (ص ٣٢١) وذكر بناء الكوفة (ص ٣٢٥) وفتح الاهواز (ص ٣٢٦) وامور غيرها يطول ذكرها . وربَّما رُويت الحوادث عينها مع شروح دقيقة وتفاصيل جمة لا تُلفى في الطبعات المتداولة . من ذلك فتح شيز التي ورد في ذكرها من الاوصاف ما يدل على شاهد عيانيّ حضر الفتح فوصف ما وقع تحت نظرهِ

ومن مزايا هذه النسخة الخطيَّة انَّها تُصلح اغلاطًا كثيرة من النسخ الطبعيَّة نذكر هنا بعضها للافادة :

١ روى الواقديّ هتاف الروم للاستغاثة والاسترحام والامان عند حلول البلاء بهم وقت الحرب فقال كانوا يصرخون « إلغون إلغون » فهذه اللفظة أُغلقت على الذين تولَّوا طبع « فتوح الشام » فرواها في طبعة كلكوتا « إلفون إلفون » بالفاء وصحَّفها صاحب طبعة مصر بجعلها عربيَّة فرواها « الغوث الغوث » . والكلمة يونانيَّة الاصل (Ἐλεον) معناها « الرحمة » و « الامان » كما يظهر من قرينة الكلام وهي في نسختنا

اصحّ واضبط . قال الواقدي يذكر كلاماً لرافع بن عميرة الطائي يريد ضرب جارية بالسيف :

« فدنوتُ منها وعلوتُ رأسها بالسيف صفحاً فجلستْ ويدُها على رأسها وجعلت تقول كلاماً بالرومية فاستثنيتُها واذا هي تقول : « إلنون إلنون » يعني الامان الامان ثم رجعتُ عن قتلها »

٢ ومن ذلك ما روي عن البطريق الذي صرعهُ خالد قال (ج ١ ص ١١١ من طبعة كلكوتا) : « انَّ البطريق عند سقوطهِ من فرسهِ كان مندفناً في سرجهِ » وفي طبعة مصر « كان مزرَّدًا في سرجهِ » والصواب ما جاء في نسختنا « وكان مزرفناً في سرجهِ » اي مرتبكاً

٣ ودونك بعض اغلاط اخرى تشوّه بها وجه المعنى في الطبعة المصريّة نصلحها عن نسختنا :

الصفحة من طبعة مصر	الغلط	الصواب
٥	انا حيض القطا	افاحيصُ القطا
٦	من طرسيهِ	من جواسيهِ
″	صاحب شرطيَّة	صاحب شرطتهِ
″	صلَّت عليهم الامة	صلَّت عليهم الأقيَّة
″	جسم عالية وقلوب غير دانية	″ ″ غير وانية
٧	قال جرجيس لاصحابه عليَّ بانفس مقالة	قال جرجيس لماجيهِ علي بصقلية القيس

ولو تتبعنا هذا الجدول لاتَّسع بنا الى حدّ بالغ فنكتفي بما رويناه وفيه غنى عن الاطالة . ولمَّا تحققنا ما في هذه النسخة من الفوائد العلميَّة لو نُشرت بالطبع اخذنا نبحث عن مخطوط اخر يضاهيه حسناً وضبطاً ويسدُّ نقصهُ في اوَّلهِ . فانطلقنا الى دمشق وبحثنا في خزانة كتبها العامرة المعروفة بالملك الظاهر فلم نجد ضالَّتنا المنشدة . ثم طرقنا ابواب رجال العلم فذهب املنا مدًى الى ان عثرنا عند احد افاضل الفيحاء من الكتبيين الادباء على عدَّة مخطوطات امكننا اقتناؤها فاذا بينها ثماني كراريس متفرقة باقطاع وخطوط مختلفة منها متقنة جميلة بحبرين اسود واحمر في اربعة اجزاء ومنها مهملة ذات خط غير محكم في اربعة اجزاء أُخرى . ومن غريب الاتفاق انَّ تلك الكراريس كانت تحتوي الجزء الاوَّل من كتاب تاريخ الشام للواقدي الذي كنَّا في طلبه يتبع بعضها

بعضاً مع اختلاف هيئاتها وخطوطها لا ينقصها الّا خمس عشرة صفحة. فشكرنا الباري تعالى على هذا التوفيق الغريب الذي جاء مطابقاً لرغبتنا تماماً

واذ حصلت اليوم في يدنا نسخة مخطوطة كاملة من فتوح الشام للواقدي عزمنا على اعادة النظر في النسخ المطبوعة واصلاحها على النسخة الخطيّة التي وجدناها مع تذييل الكتاب بالحواشي والافادات التاريخيّة والجغرافيّة التي تزيده تمماً مستندين في ذلك الى اثبت التواريخ واصدقها لاسيما بعض المخطوطات النادرة والمطبوعات العزيزة الوجود وذلك بعبارة موجزة لائقة بنمط الكتاب ان شاء الله. وها نحن نورد هنا مثالاً من نسختنا يبيّن فضلها على غيرها من النسخ المطبوعة. وهو خطاب بديع للنعمان بن مقرن القاه على الجيش الذين استصحبهم من الكوفة والبصرة لمحاربة الفرس في وقعة نهاوند. قال:

« ان الفرس امامكم فان هزمتموهم ترجعون الى نعمة وسرور وان هزموكم والعياذ بالله فلا بصرة ولا كوفة ولا مدينة تظلّكم. واعلموا انكم قد اصبحتم باباً للاسلام. فان كسروا هذا الباب والعياذ بالله دخل على الاسلام منهُ ضرّة. فانه الله عباد الله ان تخذلوا. فانتم عماد الدين توحدونهُ وتعبدونهُ. وانما تقاتلون خلقاً من خلق الله يأكلون رزقه ويعبدون غيرهُ وهي الشمس والقمر والنار وينكحون الاخوات والامهات والخالات والعمات وكل فاحشة يعمارنها. وقد ساقكم الله اليهم وساقهم اليكم هواناً بهم وكرامة لكم. فتقرّبوا الى الله بجهادكم وارغبوا في اعظم ثواب الله. . . الخ »

فحسبك هذا المثال للوقوف على خطر نسختنا. والسلام

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

وقد اشتهر في هذا الطور الثاني غير الذين ذكرناهم من أدباء المسلمين لاسيما في العراق وحلب الّا انّ اخبارهم قليلة متضعضعة ولعلّ بعض القراء يرشدوننا اليها فيحيوا ذكر اولئك الافاضل الذين درست آثارهم مع قرب عهدهم منّا

امّا ادباء النصارى الذين عُرفوا في تلك المدّة بخدمة الاداب العربيّة فها نحن نذكر